

رواية
رواية للطفل
حكايات
الجد مشعل
محمود عبد الله محمد

رواية للطفل

حكايات الجد مشعل

محمود عبد اللّه محمد

حكايات

الجـــد مشعـل

رواية للطفل١٦ :٨

تأليف محمود عبد ا   محمد

الفائزة بجائزة السيدة/ سوزان مبارك

عام ٢٠٠١/ ٢٠٠٣

١٤ قصة تدور كلها في قرية مصرية، وتدل بوضـوح على أن المؤلف لديه خبرة عميقـة وحـب قـوى لقريتـه المصرية .

كل قصة تدور حول لقطة ذكية موحية، يلتقطها المؤلف من أحداث القرية اليومية، لكنها تلقي ضـوءاً كاشـفاً علـى أسرار الناس والحياة في القرى المصرية.

تنتقل القصص من كُتاب القرية، إلى بئر الساقية، إلـى حلاق القرية، إلى الأطفال الذين يسيرون المسافات الطويلـة للوصول إلى مدارسهم، إلى الوباء الذي يفتك بالفلاحين، إلى زيارة الأميرة التي كانت تملك"أرض القرية وما حولها"، إلى انعكاس قضية الأسلحة الفاسدة سنة ١٩٤٨ على أهل القريـة وحياتهم، إلى أول جهاز راديو يدخل القرية، وصـولاً إلـى فصول محو الأمية .

إنه عالم القرية الغنى المتنوع الخصب، الـذي لا يكـاد يعرف عنه ابن المدينة شيئاً كثيراً.

مع لغة سليمة، وقدرة متميزة على السرد والحكي.

أ. يعقوب الشاروني .

(١)

ذات يوم جلس الأولاد والبنات إلى جوار الجـد"شـمس النهار" عفواً الجد"مشعل"كما يحلو لـه أن تـ ـناديه النـاس دائماً.. وطلبوا منه.. أن يحكي لهم عـن قريتـ ـنا.. عـن سامول محبوبته وعن نفسه.. عن بئر اِلشباح.. وعن فضيلة والأرض.. وعن غبريال وحزو ويوسف الأعـرج.. وعـن مديحة وكيف تعلمت.. وعن سلطان والسيد حسب النبـي. . وعن شهداء سامول والأميرة نعمت ا كمال الدين .

فقال الجد: موافق. ولكن بشرط.. سأحكي لكم كل يـوم حكاية واحدة فقط .

ثم راح الجد يحكي الحكايات من أولها.. وكانت أولهـا ....

حكاية
الشهادة الحـق

كان ذلك عام ١٩١٢.. وقتها كان الذين يُجيدون القراءة والكتابة لا يتعدون أصابع اليد الواحدة.. كما كان جميـع آل القرية باستثناء القليل منهم. .يعملون فـي"وسـية" الأميـرة الصغيرة"نعمت ا كمال الدين" لكن أبي رحمه ا .. أصـر على أنني اذهب إلى كُتاب"الشيخ رمضان" كي احفظ القـرآن الكريم.. فذهبت مع الأولاد. .وحفظت مـن القـرآن نصـفه تقريباً.

وذات خميس.. إذ أن الشيخ رمضان كان يتركنـا كـل خميس.. ويذهب ليرتل القرآن بالمنازل.. ولا يعود إلينـا إلا بعد ساعة أو ساعتين.. فيسمع منا ما حفظناه وجودنـاه مـن القرآن الكريم طوال غيابه.. لكننا كنا لا نحفظ ولا نجود.. بل كنا ننتظر يوم الخميس على أحر من الجمر لنلعب ونمرح.. عد الولد"سمير".. فهو الوحيد الذي كان يحفظ ويجود بصوته الرائع.. كم نصحنا وكم تمنى لو نجلس معه ونتسـابق فـي حفظ وتجويد القرآن الكريم.. بعض مرات كنا نطيعه.. لكنه

كان دائماً يتفوق علينا.. لم يستطع أحد منا أن يباريـه مـرة واحدة.

في هذا الخميس بالذات قال لي: لا تذهب إلـى اللعـب اليوم.. وتعالى معي نرتل القرآن الكريم ونحفـظ منـه مـا نستطيع.. فوافقته على الفور.. وما إن عرف سـالم بـذلك.. حتى جاءني وقال لي: لا يا شمس النهار.. كله إلا هذا اليوم بالذات.. هل نسيت؟ أنت حارسنا اليوم.. ستقف أمام الكُتـاب وترقب الطريق من بعيد.. حتى لا يعود سيدنا فجأة.. فيرانـا ونحن نلعب ونلهو.. تعالى وقم بدورك هذا الخميس.. وفـي الخميس القادم افعل ما تشاء.

الكل يهاب"سالم" ولا أحد يستطيع أن يعصي له أمـراً.. عدا سمير.. فأخذت مصحفي وجلست أمام الشارع.. لأقـوم بدور الحارس فاستطلع قدوم سيدنا عندما يأتي. .فـأخبرهم.. ويعودون إلى أماكنهم ويرتلون القرآن ترتيلاً.. ولكن سميراً لم يتركني. .جاء وجلس إلى جواري والأولاد مـن حولنـا يلعبون.. ثم رحنا نرتل القرآن الكريم بصوت عـذب تـارة ونسمع ما حفظناه تارة أخرى.. وسالم يحذرني بين الحـين والحين.. ولا أعبأ به.. ورحت أتبارى مع سمير فـي حفـظ القرآن الكريم وتلاوته.. قضينا وقتاً ممتعاً مـع كتـاب ا ..

ومازال الأولاد من حولنا يضحكون ويمرحون.. فمر الوقت سريعاً.. ولم اشعر أو يشعر أحد غيري إلا وسيدنا واقف بيننا ويصيح فينا غاضباً. .فهرولنا جميعاً إلى داخل الكُتاب.. ثـم جلس على مقعده وطلب العصا من سمير.. فسمير معـروف لدى سيدنا بأنه لا يلعب في وقت العلم والجد.. ولا يثير شغباً مثلنا.. فجرى سمير ليحضر العصا.. بينما كان سالم ينظـر نحوي وهو غاضب ويهمس لي: أرأيت جزاء انشغالك عـن دراستنا؟ لا تعتقد انك ستفلت من عقاب سيدنا.. أنا سـأبلغه بأنك كنت تشاركنا اللعب.

وأخذ الشيخ العصا من سمير ولوح بهـا فـي الهـواء متوعداً وهو يقول:

-ها.. كونوا شجعاناً.. من كان يلعب يخرج بنفسه مـع سالم إلى جوار السبورة.

وحاول سالم أن يدافع عن نفسه بالباطل.. فقاطعه الشيخ رمضان قائلاً:

- صه يا سالم.. لا أحد هنا يحرضهم على اللعب غيرك.

فخرج الجميع عدا سمير وأنا.. ولكن سالماً لم يتركنـي في حالي.. ابلغ سيدنا بأنني كنت معهـم.. ارتعـد جسـدي بشدة.. أول مرة أخاف سيدنا بهذا الشكل. ..وأول مرة أشعر

بالألم قبل أن تصيبني عصاه.. لكن سميراً صديقي قام علـى الفور وتقدم إلى سيدنا وأخبره بأنني لم ألعب.. بل كنت معه احفظ وأجود القرآن الكريم.. فسأل سيدنا الأولاد.. نظر سالم إليهم بعينين تنبئا عن غضبه.. فخاف الأولاد منـه.. وزاد الخوف في صدري.. فقال الأولاد :

-نعم يا سيدنا.. شمس النهار كان يلعـب معنـا منـذ الصباح.

فجعلوا سيدنا في حيرة.. الكل يؤكد له أنني كنت العب.. وسمير ينفي..هم أغلبية.. لكن سميراً لا يكذب.. فكر سـيدنا قليلاً وقال: الفيصل عندي سيكون كتاب ا .. تعال يا شمس النهار واسمعني ما حفظته اليوم.

ويا لسعادتي بهذه الشهادة.. جاء الفرج.. إنهـا سـتكون خير شهادة.. وعلى الفور رحت أُسمع عليه مـا حفظتـه.. وكانت الابتسامة تعلو وجه صديقي سمير.. بل وجه الشـيخ رمضان أيضاً.. لكنه كان كلما نظر إلـى سـالم والأولاد.. كانت علامات الغضب ترتسم على وجهـه.. ومـن يومهـا حرصت على ألا العب في وقت الجد.. ولا أخشى أحداً مـا دمت على حق.. وما دمت امتلك البرهان.

(٢)

كنت في الرابعة عشرة من عمري.. في هذه الأيام يـا أبنائي.. كانت الألعاب المسلية والألغاز ودفء الحكايـات.. والمسرحيات التي كان يؤديها بعضـنا فـي الشـارع هـي السلوى.. أما الليالي التي كان يغيب عنها القمـر.. فكـان لا أنيس ولا ونيس لي سوى مشعلي.. احمله معي أينما أذهب.. إلى الجامع.. أو لزيارة الأقارب والأصدقاء.. أو عند ذهابي إلى الحقل في الليل.. خشية أن تتعثر قدماي فـي حفـرة أو اصطدم بحائط أو جذع شجرة.. كما حدث لي يوم أن وقعت في بئر الساقية الذي كان يقال عنه أنه مسكون بالجان.

حكاية
بئـر الأشبـاح

يومها كنت ذاهباً إلى الحقل لأساعد أبي في ري القطن.. غير أن الظلام كان كحائط يسد الطريق أمامي.. والزرع في الحقول معتم.. ولا أحد يستطيع أن يميز القطن مـن الأرز.. ولكن إصراري وحبي لمساعدة أبـي.. جعلنـي لا أشـعر بالخوف من الظلام.. واصلت المسير وحدي.. لا أنيس معي غير نقيق الضفادع وتلاوة القرآن الكريم.. حتى اقتربت مـن تلك الشجرة التي يخشاها الكل.. شجرة الجازورين الضخمة والتي يسكنها ثعبان ضخم.

وأنا أمامها تذكرته.. نعم تذكرته.. أنا لا أحب الثعـابين ولا أطيق سماع فحيحها.. فتسلل الخوف إلى صدري.. راح جسدي كله يرتعد بشدة.. وأحسست وكأن الثعبـان يزحـف خلفي.. وعلى الفور تذكرت حديث الشيخ"أبو المجـد" شـيخ المسجد الكبير وهو يقول:

قرأت عن الثعابين ذات مرة.. أنها بدون آذان.. ولكنهـا تسمع عن طريق لسانها الحساس للاهتزازات الصوتية.

فكتمت أنفاسي وحاولت أن أسير على أطراف أصابعي.. بل كنت أحيانا اســتدير إلــى الشــجرة وأواصــل المســير بظهري.. حتى سمعت صوت ارتطام جسم غريــب بالمــاء الجاري بالمروَة.المارة أسفل الشجرة.. ساعتها شعرت وكأن زلزالاً قد اجتاح جسدي كله. .وأن الرعب ســيقتلني.. ودون أن أشعر انزلقت قدماي في حفرة وكدت أسقط فيها.. لــولا أنني غرست أصابعي العشرة بالأرض متشبثاً بها.. وكانــت قدماي المتدليتان بالحفرة تبحثان عن القاع دونمــا جــدوى.. تعبت وما عدت أستطيع المقاومة.. انزلقت إلى القاع واقفاً.. إلا أن جسدي المختل وقدمي المتعبتان.. فقدتا الثبات علــى الأرض الممتلئة بالحجارة.. فسقطت على ظهري.. وشعرت وكأن عظامي قد تفتت.. وأن رأسي قد شجت إلى نصــفين.. لكنني بعد فترة من الترقب والخوف تمالكت بعض الشــيء.. ورحت أتحسس المكان من حولي بيدٍ خائفة مرتعــدة.. ثــم اتكأت على جدار الحفرة ونهضت.. وعندئذ.. عرفت أننــي سقطت في بئر الأشباح.. اقصد بئر الساقية المهجورة منــذ سنين.. إنه قريب مــن شــجرة الثعبــان.. أقصــد شــجرة الجازورين.. لقد ساقني خوفي إليه.. لابد أن أخرج من هنــا سريعاً.. لكن كيف والألم يجتاح جسدي؟ ما هذا؟ أحجار؟ نعم

تلك أحجار كثير متهدمة من جدران البئر.. الآن أستطيع أن اخرج.. سأجعل منها سلماً يساعدني على الخروج سريعاً.

أواه يا ربي.. هذه الأحجار ثقيلة جداً.. هل سأقدر علـى حملها؟ كن معي يا رب.. وبعد محاولات كثيرة.. فشـلت أن أضع ولو حجراً واحداً فوق الآخر.. فجلست فوق الأحجـار ابكي وأنا لا ادري كم مر من الوقت على وجـودي داخـل البئر.. وفجأة سمعت الأشباح تنـاديني.. أصـوات كثيـرة متدافعة تنطق باسمي وتبحث عني:

شمس النهار.. يا شمس النهار.. أين أنـت يـا شـمس النهار؟

فنهضت من مكاني مرتبكـاً.. لا أعـرف مـاذا أفعـل والأشباح تناديني. .

بسم ا الرحمن الرحيم" قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس "

ولكن الأشباح ما زالت تناديني.. تقترب منـي وتبتعـد أصواتها:

شمس النهار.. يا شمس النهار.

كانت تقلد صوت أبي.. أبي؟.. أبي الآن بالأرض يروي القطن. .

شمس النهار.. يا شمس النهار.. شمس النهار يا ولدي.

ويقلدون صوت جدي!! لا لا.. لن أخدع أيها الأشباح.. وفجأة برق ضوء احمر داخل البئر.. ثم اقتربت الأصـوات أكثر وأكثر.. صارت على بعد أمتار قليلة مني. .فانزويـت إلى أحد أركان البئر حتى لا تراني.. ورويداً رويداً.. كسـى المكان ضوء كبير.. ثم سمعت الشبح الذي كان يقلد صـوت جدي وهو يقول :

أذهب يا نور الدين إلى هذا البئر وابحث في عن ولـدك شمس النهار.

فرد عليه الشبح الذي كان يقلد صوت أبي: عندك حق يا أبي.. لقد بحثنا في كل مكان وبقى هذا البئر الملعون.

وراحت دبيب أقدام الشبح تخطو نحوي ببطء شديد. .

ورحت أنا التصق بجدار البئر أكثر وأكثر.. وأنا اقـرأ سورة الناس بطريقة آلية.. ولكن الشبح لم ينصرف.. بل مد مشعله إلى البئر وهو يحركه وينادي.

شمس النهار.. يا شمس النهار.

ولما رآني في ضوء المشعل.. صرخ بأعلى صوته:

يا أهل البلد.. يا أهل سامول.. شمس النهار في البئـر.. يا أبي شمس النهار هنا.

ثم وثب إلى قاع البئر.. ولكنني لم أخف منه.. بل فرحت به.. لأنني عرفته من صوته.. من لهفته علي.. إنـه أبـي.. ارتميت على صدره وأنا ابكي بكاء مراً. .غير أن قدميه قـد جزعت ولم يستطع النهوض.. فضـمني إليـه بشـدة وراح يقبلني.. وما إن نظرت إلى أعلى.. حتى رأيت جدي وكـل أهل قريتنا سامول.. وهم يحملون المشاعل. .فمدوا إلينا حبلاً قوياً.. تعلق به أبي بعد أن رفعني فوق كتفه.. ثـم راحـوا يرفعوننا إليهم.. وما إن خرجنـا.. حتـى رفعـوني علـى أعناقهم.. وهم يغنون طوال طريقنا إلى القرية.. التي عـدنا إليها مع شروق شمس نهار جديد.. ومن يومها وأنا لا احب الظلام ولا أطيقه.. لذا قـررت أن يكـون لـدي مشـعل.. فأحضرت تيلاً من الكتان ويداً خشبية من شـجر التـوت.. وصنعت مشعلي.. وكنت لا أتركه في أوقات الظلام حتـى ألفني الناس على هذا الشكل.. فكانوا يتمنون لـو يصـادف طريقهم طريقي ويأنسون بمشعلي.

(٣)

ولما كانت الناس في القرية تمازحني.. وتناديني باسـم مشعل نسبة لمشعلي. .غضبت كثيراً من هذه التسمية.. فأنـا احب اسمي ولا أطيق أن يناديني أحد بغيره. .لذا قـررت أن لا أرد إلا على من يناديني بشمس النهار.

حكاية
منصور والحلاق

وذات ليلة أحاطني بعض من الأطفال الأشقياء.. وراحوا يتبعونني في كل مكان وهم يصيحون خلفي:

مشعل.. يا أبا مشعل.. يا مشعول.

والحق تضايقت كثيراً.. بل كادت تفلت أعصابي.. لكنني سرعان ما تمالكت وحاولت قدر استطاعتي أن أثنـيهم عمـا يفعلون.. مرة بالابتسامة.. ومـرة وأنـا اذكـرهم باسـمي الحقيقي.

ولما لم يستحوا مني ونفد صبري وتملكني غيظ شديد.. جريت خلفهم. .فتفرقوا وجرى كل واحد منهم في شـارع أو حارة.. حتى ابتعدوا وتاهوا عن مشعلي في ظـلام حالـك.. وبعد لحظات سمعت صوت أحدهم يصرخ.. فتتبعت الصوت وأنا ابحث عنه.. ولما وجدته كان راقداً إلى جـوار حـائط الزاوية والدم يسيل من رأسه.. ارتعد جسدي بشدة. .وحاولت أن أوقف له نزيف الدم دونما جدوى.. فالجرح يبدو غـائراً ويلزمه حلاق الصحة على الأقل.. فحملته على كتفي الأيمن بينما ظل مشعلي بيدي اليسرى.. وسرت بـه إلـى حـلاق

الصحة.. حيث لا يوجد أطباء إلا بالمدينة.. ولابد من إيقاف نزيف الدم فوراً.

في الطريق عرفت أنه الحاج"منصـور باشـا" خـولي المصلحة في وسية الأميرة"نعمة ا كمال الدين".. عفـواً.. اقصد الولد منصور.. فهو كان مازال ابن التاسعة. .وكـان يتيم الأبوين.. يعيش مع زوجة أبيه التي كانت تنهره ولا تهتم به لوبات بالزاوية أو بالمقابر أو بأجران الغلـة.. وراحـت دموعي تتساقط على صدري لحال هذا الولد الواهن الجسد.. الذي لا يتعدى وزنه أكثر من عشرة أرطال أو يزيد بقليل.

أنا السبب.. لولا حماقتي واندفاعي مـا جريـت خلـف الأولاد.. وما حدث لمنصور ما حدث.

وضمد له الحلاق الجرح الغائر.. ثم هددني بأنه يجـب أن نبلغ عن الحادث. .ولكنه عاد وصفح بحجة أنني ابن رجلٍ طيب كريم.. يعطيه حقه وزيادة في موسم الحصاد. .ثم طلب مني خمسة مليمات دفعة واحدة.. فأعطيته الخمسة مليمـات وكانت كل ما في جيبي. .وظللت بعدها أعاني الفقر أسـبوعاً كاملاً.. ومن يومها وأنا قررت ألا أغضـب ممـن يقولـون لي"يا مشعل" أو حتى يا مشعول.. ثـم رحـت أهـدئ مـن روعي:

-هل اسم مشعل عيباً؟.. بالعكس.. اسم جميل وله معنى كشمس النهار تماماً.

ورويداً رويداً تناسي الناس أسمي الذي ولد معي.. حتى كدت أنساه أنا الآخر.

(٤)

- أنا لا أجيد الكتابة يا فضيلة الشيخ.

- تقرأ ولا تكتب!.. معقول يا شمس النهار؟!.. حـافظ للقرآن ولا تكتب حتى اسمك؟ هذا وا عجباً! .!

ثم طلب مني بعد أن انتهى من عقد قراني.. أن اذهـب إليه في الكتّاب ليعلمني القراءة والكتابة.. في البداية فرحـت كثيراً.. العلم نور.. لكنني سرعان ما تراجعت وقلت لنفسي: كيف؟ أي كتابة أتعلمها وأنا في هذا السن؟ ويا ليتني ذهبـت إلى الشيخ وتعلمت! !

حكاية

تعليم سلطان

ومرت الأيام سريعة.. حتى رزقني ا مولـوداً جمـيلاً أسميته سلطان. .كان طفلاً ذكياً أيضاً.. شكرت ربي من أجله كثيراً.. لذا كان لابد أن أعلمه حتى لو كنت سأبيع من أجلـه

الدار.. وكان عام ١٩٣٠ هو موعد دخوله المدرسة.. وعلى الفور وبلا تردد ذهبت به إلــى مدرســة التوفيــق بالمحلــة الكبيرة.. وألحقته بها.. ثم استأجرت له مســكناً قريبــاً مــن المدرسة.. وكان يغيب عنا بالأسبوع.. وأحياناً بالأســبوعين إلا أنني كنت أزوره في وسط الأسبوع.. وكنت لا أكتفي بما يتعلمه.. بل كنت أجلس معه عنــدما يــأتي لزيارتنــا فــي ساهول.. خميس وجمعة.. وأحفظه من القرآن ما يستطيع أن يحفظ. .حتى صار متفوقاً.. لكن قيام الحرب العالمية الثانيــة في آخر الثلاثينات. .جعلتني أخشى عليه من البقاء في المدينة بمفرده.. خاصة وبعد أن سمعنا حديث الشيخ أبو المجد.. عن الدمار الذي أصاب العالم من جراء هذه الحرب.. وعن حالة العشوائية التي أصابت المدن الكبرى.. بسبب خوفها مــن أن تتعرض لقذف مباغت.. كما حدث لمدن كثيرة.. لذا قــررت عودته إلى القرية مكتفيا بما تعلم.. لكن سلطان غضب غضباً شديداً. .وأخذ يرجوني أن أتركه حتى يكمل تعليمه.. وأكثــر من ذلك فقد ذهب إلى الشيخ أبو المجد في المسجد وطلب منه أن يتوسط له عندي.

وذات ليلة جاءنا الشيخ أبو المجد.. وكنت جالساً مع أبي نور الدين. .فسعدنا به كثيراً.. فزيارته لأبي تثير البهجة في

نفوسنا.. سلم على أبي وجلس إلى جواره.. وبلا مقدمات أخذ ينقل لنا رغبة سلطان وحبه لتكملة مشوار التعليم.. وأنه هـو أيضاً مؤيده في ذلك.. خاصة وأن مدينة المحلـة الكبيـرة.. بعيدة كل البعد عن الحرب.. عند ذلك أردف أبي قائلاً:

دع ولدك يا شمس يكمل تعليمه.. مـن يـدرى.. ربمـا أصبح طبيباً فيعالجني من هذا الربو اللعين.. أو عالماً كبيـراً كجده الشيخ أبو المجد.

واستعنت با وألغيت فقط فكرة المسكن بالمدينة.. لكنني كنت كل يوم بعد صلاة الفجر اصحبه إلى المدرسة في مدينة المحلة الكبيرة.. في ضوء مشعلي.. ولا أعود إلا معه فـي الظهيرة.. كانت معاناة سببتها لي وله الحرب.. إذ أننا فـي أحياناً كثيرة كنا نذهب إلى المدينة سيراً على الأقدام.. ويـا ليتها دامت تلك الأيام.. لقد تعلمـت خلالهـا كيـف أكتـب الحروف الأبجدية.. إذ كان كل يوم يعلمني سلطان حرف أو حرفين. .حتى اشتدت الحرب وزادت كوارثها.. عندما سمعنا أن أمريكا ستضرب جميع المدن الكبيرة.. التي ستقف ضـد مصالحها بالقنابل الذرية.. وجلست أنا وأمه نضرب أخماسـا في أسداس.. نفكر في حيلة نقنع بها سلطان كي يكتفي بمـا تعلم.. وبعد جدال طويل معه. .استطعت أن أقنعه بحيلة أنني

احتاجه معي في فلاحة الأرض.. خاصة بعد وفاة جده نور الدين.

وانتهت الحرب لما أخبرنا الشيخ بأن الألمان قد هزمـوا في العلمين.. وهيئ لنا أن الأعياد قد عـادت.. وأن أزهـار جديدة ستولد.. وأن الدنيا سيعود إليها صفاؤها ونقاؤها.. وها هو سلطان يعد نفسه من جديد وبإصرار على تكملة مشـوار التعليم.. وها أنا أعد نفسي لأكمل معـه المشـوار وأتعلـم الكتابة.

(٥)

ولم تدم فرحتنا بانتهاء الحرب غير أيام أو شـهور قليلة.. فوباء الكوليرا قد اجتاح القرية بأكملها.. وقتل منهـا أعدادا كثيرة من الناس.. ففي خلال يومين فقط.. كان هـذا المرض قد طرق كل البيوت.. ولم يفلت بيتاً واحداً من هذا الوباء اللعين.. إلا وقد شيع نفراً منه.. هاااه.. رحمك ا يـا أم سلطان.. وأنت أيضاً يا حامد يا تركي يا شيخ البلد.

حكاية
شيـخ البلـد

كان اليوم صعباً جداً.. فالموتى وصـل عـددهم إلـى خمسين فرداً وزيادة. .والإحساس بالموت في أي لحظة.. قد سيطر على جميع الناس بالقرية.. وقتها كان حزني علـى أم سلطان شديداً.. لدرجة جعلتني أشعر بأن كل شيء قد صـار لونه أسود.. جدران المنازل ونوافذها وأبوابها لونها أسـود.. حتى السحب في ذلك اليوم قد صارت سوداء حالكة.. ورحت أمشي في شوارع سامول.. كيفما تجرني قـدماي.. وكنـت التقي بجماعات من الناس يرتـدون السـواد.. ويسـتعدون للرحيل.. وكلما سألت أحدهم.. كان يجيبوني بأنه ذاهب إلى الحقول ليعيش وسط الخضرة.. بعيـداً عـن تلـك القريـة الموبؤة.. حتى شيخ البلد.. رأيته يستعد مع زوجتـه وولـداه حسان وفضيلة للرحيل أيضاً إلى الحقول الخضراء. .فاندفعت ناحيته.

ماذا تفعل يا شيخ البلد؟

مشعل؟ لما لم تهرب كما يهرب الناس؟ اللعنـة حطـت على البلد.. هيا يا رجل تعالى معي إلى حوض الساقية.. انج بنفسك وبأهلك يا مشعل.

وأخذت أساعده في نقل أمتعته.. ولما انتهينا من تحزيمها ووضعتها على ظهر حماره.. حملنا في أيدينا ما تبقى منها.. ثم اتجهنا بعدها للحقول.. ولكننا أثناء سـيرنا إلـى حـوض الساقية.. مال علي شيخ البلد وهمس في أذني:

أشعر بألم وانتفاخ في بطني يا مشعل.

طمأنته رغم القلق الذي انتابني.. قلت له:

ربما كان ذلك من أثر طعام الإفطـار.. مـاذا تناولـت اليوم؟.

لكنه لم يستطع أن يرد على سؤالي.. بل اخذ يصرخ:

سأموت.. سأموت يا مشعل.

وعلى الفور أنزلنا ما كان على ظهر الحمار.. وحملنـا بدلاً منه شيخ البلد الذي بدا مغشيا عليـه.. وقبـل أن نعبـر الجسر الذي يربط القرية بحوض الساقية. .بخطوات قليلـة.. كانت قد فاضت روحه إلى خالقها.. فازدادت حالـة اليـأس بداخلي. .وكان من الضروري أن تلغى الرحلة إلى الحقـول الخضراء.. ونبدأ في دفن جثة شيخ البلد. .فعدت أنا وحسان

بعد أن تركنا الزوجة وابنته فضيلة إلى جوار جثته.. لنبحث معاً عن نعشٍ نحمله فيه إلى المقابر.. ولأنه كان نعشاً واحداً بالقرية.. ولأن القرية كانت في تلك الأيام تحتاج إلى أكثر من نعش.. فكرامة الميت في سرعة دفنه.. حملته أنا وزوجتـه وحسان وفضيلة.. فوق سلم خشبي إلى المقابر.. ثم تعاونـا في دفنه. .وبعدها عاد حسان مع أمه وأخته.. وجلست أنا إلى جوار قبر أم سلطان لأقرأ لها ولأمواتنا جميعاً الفاتحة.

(٦)

وفي المساء وعند قبر أم سـلطان زوجتـي.. جـاءني سلطان حاملاً مشعلي وكان معه حسان.. جاءني بعد أن بحث عني في كل مكان.. نظر إلى طويلاً ثم ارتمى في صدري. . واخذ يقبلني وهو يبكي.. ساعتها فقط شعرت وأن شيئاً ثقيلاً قد رفع عن كاهلي. ..وأنني أستطيع السير من جديد.. فأخذت المشعل منه وتقدمتهما ناحية الدار بالقرية.

حكاية

زيارة الأميرة

وعند عودتنا من المقابر.. كانت هناك حركة غير عادية داخل قصر الأميرة نعمة ا كمال الـدين.. حيـث أنـوار

المصابيح تطل بأضوائها من الداخل إلى الساحة الوسيعة أمام القصر.. وكان منصور باشا خولي المصلحة.. واقفاً في هذه الساحة الوسيعة.. ويبدو عليه القلق والتوتر.. وما إن وقعـت عيناه على مشعلي حتى عرفني. .وهـرول نـاحيتي وهـو يناديني.

عم مشعل.. يا عم مشعل.. الأميرة حضـرت لزيـارة القرية ولديها أخبار سارة بخصوص مياه الشرب.. لكن أيـن الناس؟ أين العمدة وشيخ البلد.. لا أحد هنا يستقبل الأميـرة ومن معها.. أنها غاضبة بالداخل.. أيرضيك هذا؟ لا أحد في استقبالها؟.

وعلى الفور اندفعت ناحية القصر.. ما كنت أستطيع أن اترك تلك الفرصة الثمينة تضيع مني.. القرية ستقضي عليها الكوليرا والأميرة بالداخل لا يشغلها سوى عدم استقبال أهـل القرية لها.

-وأين هي؟.. ومياه شرب ماذا يا منصور؟.. ألم تحدثها عن الكوليرا وعن الذين يلقون حتفهم كل ساعة وكل لحظة؟

-واحدة واحدة على الأميرة يا عم مشـعل.. أرجـوك أرسل سلطاناً إلى العمدة وحسان إلى والده.. يجب أن يحضر الاثنان فوراً.

ولم اشعر بنفسي إلا وأنا مندفع إلى داخل القصر بعد أن تركت المشعل مع سلطان.

-تقول شيخ البلد يحضر يـا منصـور وفـوراً؟! أيـن الأميرة؟ هل جاءت كعادتها للنزهة بين الحقول الخضـراء.. والاستمتاع بهتافات الفلاحين لها؟ !

فاندفع منصور خلفي محاولاً منعي بآية طريقة

-ماذا تقول يا عم مشعل.. ألم تستح يـا رجـل؟ أنهـا الأميرة التي جاءت من أجل حل مشكلة مياه الشرب.. ليتني ما حدثتك.. هل تريد يا رجل أن تقطع رزقي من هنا؟ !

-كل هذا لا يهمني.. أين الأميرة يا منصور؟

وخرجت الأميرة من غرفة مكتبها وخلفهـا عـدد مـن الرجال والنساء.

-أنا الأميرة.. أتركه يا منصور.. تعالى يا. ..

مولاتي الأميرة.. القرية ستموت لو لم تفعلي شيئاً.. أنت بالذات يا مولاتي يجب أن تتحركي من أجلنـا.. أرجـوك.. وأشارت إلى الأميرة لأقترب منها فاقتربت

-اطمئن يا. ....

وقبل أن انطق وأقول لها شمس النهار.. سبقني منصور واخبرها أن اسمي مشعل.

-اطمئن يا مشعل.. سنحل مشكلة ميـاه الشـرب إلـى الأبد.. لقد أمرت لكم ببناء محطة كبيرة لتنقية مياه الشرب.. وستبنى في خلال عام على الأكثر إن شاء ا .

مياه شرب ماذا يا مولاتي.. الأمر صار اخطر مـن أن نشرب من مياه الترعة. .إنها الكوليرا يا مولاتي الأميـرة.. الفلاحون يتساقطون واحداً بعد الآخر.. لقد مات حتـى الآن عشرون فرداً وزيادة.. من بينهم شيخ البلد.

ودهشت الأميرة.. بل وتسمرت في مكانها هـي ومـن معها من هول الصدمة وأخذت تردد جملـة واحـدة بشـكل هستيري كوليرا.. رحماك يا ربي، ثم صوبت نظراتها إلـى منصور الذي كان وجهه يتصبب عرقاً مـن شـدة الخـوف وأردفت قائلة:

لما لم تخبرني يا منصـور بـالتليفون؟ لـو أخبرتنـي لأحضرت معي فريق من الأطباء.. ماذا افعل أنا الآن؟

وقبل أن ينطق منصور بكلمة واحدة.. واصلت الأميـرة حديثها:

كوليرا!! مسكينة يا قريتي الحبيبة.. منذ متـى أصـاب قريتي هذا المرض يا مشعل؟

ثم جلست على مقعدها وكأنها قد أغشى عليها من هـول ما سمعت.. وبعدها بلحظات انتفضت واقفـة وهـي توجـه حديثها إلى أحد رجالها:

يجب أن يكون لقريتي مستشـفى.. هـذا أمـر واجـب التنفيذ.. ومن هنا وحتى يتم بناء المستشفى.. اطلب فريقاً من الأطباء يعمل ليل نهار من اجل علاج مرضى قريتي. .هيا.. التليفون أمامك نفذ فوراً.

ولم تسعني الدنيا من فرط سعادتي.. إلا أننـي عنـدما تذكرت أن المرض معدٍ. .وأن حياة الأميرة في خطر شديد.. قمت على الفور بتحذيرها:

مولاتي.. أخشى أن يصاب أحدكم بعـدوى الكـوليرا.. وجودك بيننا الآن به خطر على حياتك وحياة من معك.

فدمعت عينا الأميرة وهي تتراجع للخلف وتهز رأسـها في أسف.. ثم أسرعت بالعودة إلى العاصمة.. بعد أن أمرت ببناء تلك المستشفى عند مدخل القرية إلى جوار محطة ميـاه الشُرب وعلى خمسة أفدنه من أرضيها.

ولما غادر وباء الكوليرا اللعين القرية إلى غير رجعة.. عادت إلينا ليالي السهر والسمر.. وراح مشعلي يـتلألأ فـي

يدي.. حتى الشحاذين قد عادوا. .والباعة أيضاً عـادوا إلـى القرية يشترون ويبيعون من جديد.. كان ذلك عام ١٩٤٧.

حكاية
استيطان الأرض

حدث كل هذا بسرعة مدهشة.. وأكثر من ذلـك.. فقـد بات"يوسف الأعرج" ولا أدري لماذا كان اسـمه الأعـرج.. الذي كان يشتري الأجولة الفارغة والردة.. واحد من أبنـاء القرية.. كما اشترى له ولحماره داراً بوسط البلد.. وبعد قليل استطاع أن يشتري قطعة ارض زراعية.. باعها له عـواد.. ثم ترك التجارة وراح يتعلم الزراعة. .أخذ يتعلمهـا رويـداً رويداً.. حتى صار فلاحاً جيداً يزرع ويحصـد.. وعندئـذ حاول"حزو ووالده غبريال".. بائعاً قلادات القشرة.. أن يقلـدا يوسف في ذلك.. فاشتريا داراً كبيرة بوسط البلد أيضاً.. ثـم راحا يبحثان عن ارض يشترياها.. لكن أحداً لم يبيع لهمـا.. فجاء حزو إلى يوسف كي يأخذ منه النصيحة والمشـورة.. فأشار عليه. .بأن يحاول مرة أخرى مع فضيلة ابنـة شـيخ البلد.. فربما اقتنعت هذه المرة وباعت.. ثم أردف :

-وإن لم توفق على البيع.. زوجها لولـدك غبريـال.. البنت وحيدة وتحتاج لمن يرعى معها مصالحها ويقف إلـى جوارها.

وبالفعل راح حزو وولده يحاولان إقناعها ببيع ولو قطعة صغيرة من أرضها لهما بحجة المساعدة على العيش.. ولكنها عادت ورفضت.. فهي لا تحب أن تتزوج بواحد مـن غيـر قريتها.. ولم ييأسا.. وأخذا يبحثان عن وسيط يستطيع إقنـاع فضيلة.. فأشركا العمدة وشيخ البلـد الجديـد.. بـل وشـيخ الخفراء أيضاً.. ومع ذلك باءت كل المحـاولات بالفشـل.. وذات يوم جاءني حزو وولده غبريال ويوسـف الأعـرج.. وطلبوا مني نفس الطلب. .فهم يعرفون جيداً قـدري وقـدر كلمتي عند فضيلة التي تعتبرني مثل أبيها رحمه ا . .ودون تردد رفضت طلبهم.. بل حذرتهم من أن يضـغطوا عليهـا أكثر من ذلك.. عند هذا الحد اندفع غبريال بحماقة وقال لي :

-لو أقنعتها سنعطيك ما تريد.

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا ألطمه على وجهه لطمة قوية.. جعلتا حزو ويوسف يشعران بفداحة ما قاله لي ذلك الحلوف غبريال.. لذا اندفع حزو وأخذ يضربه حتى سال الـدم مـن وجهه.. ولم يكتف بذلك.. بل جذبه من طوق جلبابه وأقسم له لو لم يقبل رأسي ويعتذر لي بشكل لائق.. ما سمى له ولداً.. ثم صرخ في وجهه وقال:

-هيا.

ولم يكن لدي أمام هذا القسم سـوى أن اتـرك رأسـي لغبريال يقبلها كيف يشاء. .ثم راح حزو ومن بعده يوسـف الأعرج يعتذران لي أيضاً.. وبعد ذلك استأذنوا بالانصراف.

ولم يمر على ذلك سوى أسبوعين فقط.. يومهـا كنـت ذاهباً إلى الحقل كي أعاون سلطان في حم البرسيم.. إذا أنها كانت الرية الثانية.. ويجب أن تمتلئ الأرض عـن آخرهـا بالماء.. في الطريق سمعت خبراً غريباً.. وهو أن عبد الغني باشا كاتب الوسية.. سيقتل غبريـال.. وسـمعت أيضـاً أن فضيلة هي السبب وراء ذلك.. وعند الساقية. .رأيت سـلطاناً يدور خلف البقرة وهو حزين.. وثائر... وما إن وقع بصره على. .حتى توقف عن الدوران وقال لي :

-هل علمت ما فعله الحيوان غبريال تجاه فضيلة الليلـة الماضية وقبل الماضية؟

-وماذا فعل هذا الحلوف؟

-سل عبد الغني.. لا لا.. الأجـدر أن تسـأل فضـيلة نفسها.. إنها قريبة من هنا.. اذهب إليها في أرض الدكاني.. سوف تحكي لك كل شيء.

وعلى الفور اتجهت إليها.. كانت جالسة اسـفل شـجرة الصفصاف إلى جوار بقرتها وتبكي.

- ما الذي يبكيك يا فضيلة؟.. ماذا حدث يا بنيتي؟

فأخبرتني بأن غبريال يضايقها كلما رآها.. وأكثر مـن ذلك.. فانه يأتيها في الليل ويجلس اسـفل شُـباكها الخلفـي المواجه للحقول.. والناس نيام.. ويعوي كما تعوي الذئاب في الحقول.. في الليلة الأولى خافت وارتعدت.. بل أكملت ليلتها ساهرة حتى الصباح.. لكنها في الليلة الثانية.. أخذت حذرها من الذئب.. لما أحضرت إلى جوارها سكيناً وعصاً كبيرة.. ثم أقفلت الباب الكبير جيداً.. وفي نفس الميعاد جاءها غبريال واخذ يعوي كما تعوي الذئاب في الحقول.. لكنها هذه المـرة عرفته.. من صوته الذي يشـبه صـوت نهيـق الحمـار.. عرفته.. لأنه هو الوحيد الـذي يـود مضـايقتها. عرفتـه. فنهضت من مكانها وحملت آنية فخارية واتجهت بها ناحيـة باب غرفتها على أطراف أصابعها.. فتحت الباب وراحـت تصعد أدراج السلم إلى أعلى.. من فوق السطح أطلت برأسها إلى الشارع.. كان مازال يعوي أسفل الشباك.. رفعت الآنية إلى أعلى وهبطت بها فوق رأسه.. فسقط على الأرض.. من فوق السطح ظلت تراقبه بعينين قلقتين.. ظلت علـى ذلـك لحظات قصيرة.. استطاع خلالها غبريال أن ينهض واقفا ثم غادر المكان.

وكي تتأكد فضيلة أكثر وأكثر من أنه هـو غبريـال.. أرسلت جارتها في الصباح. .كي تشتري لهـا عقـداً مـن القشرة.. دون أن تطلعها على ما حدث في الليل.. وراحـت الجارة وعادت بالعقد.. فسألتها:

من الذي باع لك العقد؟ هل غبريال أم حزو؟

-حزو.. حزو هو الذي باعني إياه.

-خشيت أن يكون غبريال فغبريال يبيع بأسعار غالية.

-يبدو لي أنني سمعت صوت رجل يـئن داخـل أحـد الغرف.. يهيئ لي أنه كان صوته .

وعند هذا الحد أخذت فضيلة من يدها وذهبت بها إلـى العمدة.. قدمنا له بلاغاً بما حدث.. وعلى الفور أمر العمدة.. خفراءه كي يأتوه بغبريال.

أمام جميع أهالي القرية.. اخذ العمدة تعهداً مكتوباً علـى غبريال.. بأن لا يقرب فضـيلة بـأي أذى أو سـوء.. وألا سيعاقب بالطرد خارج القرية.

فوقع على التعهد.. ثم سمح له العمدة بعد ذلك بـالعودة إلى داره.. وسط غضب وسخط الجميع عليه.

ولم يمر سوى شهور قليلة.. حتى تقدم لخطبة فضـيلة.. عبد الغني باش كاتب الوسـية.. فوافقـت دون تـردد وتـم زواجهما.

وفي العام ذاته.. أفضى إلى سلطان بسره.. وهو أنه يود الزواج من ست البنات بنت محي الدين صلاح.. فوافقت وتم الاتفاق بيني وبين محي الدين.. على إتمام الزواج بعد عام.. أي بعد حصاد محصول القطن مباشرة.

حكاية
زواج سلطان

ومرت الأيام سريعاً.. ولكن الرياح أتت بما لا تشـتهي السفن.. كنا يومها بالحقل نجمع القطن ساعة جاءنا الخبـر.. خبر استشهاد مسعد بن الشيخ أبو المجد. .فعدنا جميعاً إلـى القرية تاركين كل شيء.. ثم اتجهنا إلى الطريق الزراعـي.. وعند المستشفى الجديدة جلسـنا ننتظـر وصـول الجثـة.. انتظرناها طويلاً.. يومين.. ثلاثة أيام.. أسبوعا بطوله.. ولم تأت الجثة.. وإن كان الأمل ما زال يراودنا.. إلا أننا عـدنا إلى حقولنا.. فمحصول القطن بالذات مثل الثوب الأبـيض.. يجب الحفاظ عليه من السـقوط إلـى الأرض.. وتعرضـه للأتربة والوسخ مما يقلل من قيمته... إلا أنـا الشـيخ أبـو المجد.. ترك كل شيء وراح يبحث عن الحقيقة.. سافر إلى العاصمة.. غاب هناك أسبوعين كاملين.. ولمـا عـاد إلينـا وجدنا جميعاً في انتظاره ليخبرنا بموعد وصول الجثـة.. إلا أن الوجوم المسيطر على وجهه.. والعينان الذابلتان المتحجر فيها الدمع. .قد إحالتنا على الفور إلى حزنا أكثر واكبر.

وفي المسجد يوم الجمعة.. وقف الشـيخ علـى المنبـر يخطب فينا.. وكان الدمع يتساقط من عينيه.

-أيها الناس.. لن أطيل عليكم اليوم.. ولن أخوض فـي كل التفاصيل. .لكنني يكفيني أن أقول لكم: أن الملك وحاشيته قد خانوا الجيش وتسببوا في موت ولدي مسـعد.. أعطـوه سلاحاً فاسداً.. لا ليدافع به عن نفسه وعن عروبته.. ولكـن ليقتل به نفسه.. أيها الناس.. لصالح مـن يمـوت مسـعد؟! لصالح من يموت كل الأبرياء؟! لصـالح مـن يـتم تـدمير الجيش؟! ألم يعلم الملك وحاشيته إن عزة الـوطن ونصـرته أمانة في أعناقهم.. ألم يعلموا بأنهم قد خانوا الأمانـة؟! ألـم يعلموا أن خيانة الأمانة من آية المنافقين؟ !

وامتزج حديث الشيخ بالبكـاء لدرجـة جعلتنـا نشـعر بالخوف عليه.. ثم صلينا الجمعـة.. ومـن بعـدها صـلاة الغائب.. ثم عدنا إلى دورنا والحزن يملأ الصـدور لحـال الشيخ أبو المجد.. الذي فاجأني بالزيارة وكـان معـه والـد العروس.. فقال لي:

-اسمع يا مشعل.. لقد اتفقت مع محي الدين على إقامـة الفرح هذا الأسبوع اعتقد انك أيضاً لن تخالفني فـي ذلـك.. مسعد وسلطان وست البنات.. الثلاثة أبنائي وأنا لا يرضيني

أن يتأجل زواج سلطان وست البنات أكثر من ذلك.. ولـدي مسعد شهيد في ذمة ا .. أقول كفانا حزناً.. الفرح هو الشيء الوحيد الذي سيعيد إلى البلدة بهجتها.. اعلم أن كـل شـيء جاهز ولا يبقى سوى أن نُعلم الناس بموعد الفرح.

ولأنه شيخنا ولا نستطيع أن نرفض له طلباً.. راح العم عبد الجواد يجول القرية بصوته القوي.. شـارع شـارع.. وحارة حارة يردد ويقول:

-يا أهل سامول.. العقبى لكم.. زواج سلطان من سـت البنات غداً والدعوة عامة.

وعلقت مناديل الفرح.. وارتفع الصـارى أمـام الـدار وعلت الزغاريد.. وفي الليل كان موكب العروسـين رائعـاً ساعة جذبني محي الدين لأرقص معه بالعصا.. رقصنا وقتاً طويلاً.. وضحكنا من قلوبنا حتى دمعت الأعين.. وفي ظـل هذه الفرحة الغامرة. .جاءنا صوت منصـور باشـا خـولي المصلحة من بعيد.. وهو يبارك العروسين.. ثـم شـاركنا الرقص بعصاه.. لكنه بعد ثـوان معـدودة ودون أن يلفـت الأنظار خاصة سلطان وعروسه. .همس في أذني:

وصلت إشارة من الجيش إلى العمدة.. تفيد بأن محمـود بن حامد المراكبي تعيش أنت.. الجثة على وصول.. والعمدة والشيخ أبو المجد ينتظرانك عند البوابة العمومية.

فانطفأت الأنوار وانعقدت الألسنة حتى عـن الكـلام.. واصطحب سلطان عروسه خلسة إلى داخل الدار.. أما أنـا فحملت مشعلي واتجهت به إلى أول الطريق.. وهناك جلسنا جميعاً أمام المستشفى الجديدة فـي انتظـار وصـول جثـة الشهيد.. والتي وصلت مع أول طلوع الصباح.

* * *

(٩)

يوسف الأعرج خاب يا أولاد.. وباع حماره سنده فـي الحياة.. اشترى مذياعاً لا فائدة منه.. لقد خاب يوسف بفعلته تلك.. هكذا قال عنه الناس في قريتنا وقتها.

حكاية
يوسف الأعرج

كان لا يزرع ما نزرع.. ولا يفعل ما نفعل.. فإذا زرعنا القطن زرع هو الأرز.. وإذا زرعنـا القمـح.. زرع هـو البرسيم وتاجر فيه.. إذ كان يبيع قيراط البرسيم الواحد بمبالغ كبيرة.. ولما لا وهو لا يربي من الحيوانات سواه.. وقليـل من البرسيم يكفيه.

أغرب شيء في هذا الرجل غريب الأطوار.. أنه كـان يعرف في كل شيء.. في السياسة والفن والرياضة.. ومـع ذلك كان لا يرتدي سوى ملابس ممزقة و لا يهتم بحلاق لحيته أو بتلميع حذائه المرقع.. وكان معروفاً بطاقيته السوداء التي يرتديها في مؤخرة رأسه.. وكان لا يصلي.. ولا يصـوم.. يحب نفسه كحبه للمليم والقرش.

المهم أنه خاب وباع الحمار الذي كان سنده الوحيد فـي الحياة.. كان لا يفارقه لحظة واحدة.. لو غاب يوسـف عـن القرية يوماً أو بعض يوم.. غاب معـه الحمـار. .وإذا أراد الذهاب إلى الحقل امتطاه.. وفي أيام الحصاد كان هو سـنده في تخزين المحصول.. لكنه خاب وباعه واشـترى بثمنـه

مذياعاً كبيراً ورفاً بديعاً.. علقه على الحائط.. ثم وضع فوقه المذياع.. وكان هذا المذياع أول مذياع يدخل قريتنا سامول. . لذا هلع البعض من الناس وراحوا يتهمون يوسف بأنـه قـد جلب إلى القرية شيطاناً حديدياً. .واسمه مذياع.. يتكلم كمـا نتكلم.. الويل ليوسف.. وحتى عندما ذهب إلى العمدة طلـب منه أن يوصي الخفراء بمباشرة داره في الليـل.. حتـى لا يسرق اللصوص المذياع. .نهره العمـدة واتهمـه بـالفجور والتلاف. ولما اشتدت الحرب في فلسطين وكثرت الحكايـات عنها.. وعرف الكل أن مذياع يوسف.. هو الذي يأتي بأخبار الحرب التي يدور بها يوسف في القرية.. وأن المذياع.. مـا هو إلا شيء من صنع الإنسان.. فما كان أمامنا إلا أن نعقـد صلحاً معه.. كي يسمح لنا في الليـل بعـد أن نعـود مـن حقولنا.. بالذهاب إلى داره ونستمع إلى مذياعه.. وفي الليل.. يحلو السهر.. وأمام المذياع والاستماع إلى أم كلثـوم وعبـد الوهاب وفريد ونجاة تختفي الأحزان ويذوب التعب.. فتعلـو الضحكات ويصفو البال.. ويـتلألأ مشـعلي فـي الـذهاب والإياب.. ولا شيء يعكر الصفو إلا دفع المليم فـي نهايـة السهرة إلى يوسف.. فالمليم كان نصـف أجـرة الرجـل أو يقارب في وسية الأميرة.. حتى العمدة غدا يـذهب لسـماع

المذياع بعد أن يكون قد سبقه أحد مـن الخفـراء إلـى دار يوسف.. كي يعلن عن قدومه.. فتخلو الدار فوراً.

ويوماً بعد يوم.. صار يوسف محط اهتمام الجميع فـي القرية.. فكان ينزل له الراكب ويقف له الجالس.. ويشـاوره في الأمر مَنْ أراد المشورة.. ولما لا. .أليس هـو صـاحب المذياع الذي ينقل أخبار العالم إلينا؟ أليس هو صاحب الرأي فيمن سيدخل داره ومن لا يدخل خاصـة بعـد أن اشـترى مذياعاً ثانياً جلب له مالاً أكثر وشهرة أكبر.. فصار يقـرض الناس بربح يزيد عن المائة في المائة.. ثم جلس مع النـبلاء كواحد من الأثرياء الوجهاء الذي يمتلكون الكارتـة والـدار المدهونة العالية البنيان.. وليس ذلك فحسب.. بـل صـارت داره علامة من علامات القرية التي وجـب عليهـا تشـديد الحراسة. .وفجأة ترك القرية ورحل.. رحل بعد أن باع كـل ما يملك لغبريال دون أن يشعر واحد من الناس.. وكان ذلك قبل قيام الثورة بشهور قلية.. ومن يومها ولم نسمع عنه إلا حكايات يحكيها واحد ويكذبها آخر.

* * *

(١٠)

وخرجت الناس إلى الشوارع يهتفون ويهللون فـ رحين.. فمن كان لا يمتلك الأرض.. صارت له ارض يزرعها.. لذا فكان من الضروري أن أتقدم الناس بمشعلي وأهتف معهم.

حكاية
أرض فضيلة

حتى غبريال الذي لم تنتـه خلافاتـه ومشـاغباته مـع فضيلة.. صار أيضاً يمتلك أرضاً.. بل صار جاراً لفضيلة.. جاورها في الأرض.. فازدادت المشاكل بينهما بإلقائه نفايات أرضه في أرضها.. وكثيراً ما كان يحـاول طمـس الحـد الفاصل بين الأرضيين.

غبريال ما كان يستطيع فعل أشياء كهـذه.. إلا بسـبب تطوع عبد الغني زوج فضيلة.. مع ولدي سلطان وكثيـرين من أبناء القرية.. في الحرب ضد العدوان.. وأيضاً لصـغر سن ولدها بركات وبنتها زهرة.. ولكنها تحملـت بشـجاعة وصبر كل استفزازاته. .وعلقت آمالها على عودة زوجهـا.. الذي عاد مع انتهاء الحرب مريضاً ولا يسـتطيع فعـل أي شيء .. حتى مات في فراشه بعد عامين.. وفقدته للأبد كمـا فقدت أنا سلطان في الحرب. .تاركاً لي ولده محمود .

واستمرت استفزازات غبريال.. بل زادت عنـدما كـان يذهب إلى الأرض في الليل هو ورجاله.. ويثقبـون جسـر أرض الأرز فينصرف الماء مَنْ خلالـه.. وتجـف الأرض

ويصبح الأرز عطشاناً.. كل هذا وما كان أحد يستطيع القول مع فضيلة بأن الفاعل غبريال.

وكيف يجرؤ أحد على قول شيء كهذا.. وغبريـال قـد كثرت شروره.. خاصة بعد أن قام أحد ثيرانه.. اقصد رجاله الأربعة.. بضرب أحد الخفراء.. وبعد أن سطا على الجـرن الواسع الذي كان أمام داره.. وبنى به دواراً كبيراً.. العمـدة نفسه يعمل لغبريال ألف حساب.. لكن فضيلة قررت شـكواه للعمدة.. وبالفعل تقدمت ببلاغ مفصل بكل ما يفعله غبريـال معها.. لكن العمدة لوى عنق الحقيقة واتهمها بإثارة البلبلـة وافتعال المشاكل مع جارها.. ولما جائتني لتسـتنجد بـي.. ذهبت معها لأرى ما فعل غبريال بالأرض.. وأكون شـاهداً معها أمام العمدة.. كان مشهداً صعباً.. القطن مداس بأقـدام البشر والبهائم.. عيدان القطن واقفة محنية إلى الأرض.. أو مكسورة العنق. .روث البهائم صبغ القطن الأبـيض بـاللون الأسود.. صرخت بأعلى صوتي على الفلاحين بالأراضي.. لكن أحدا لم يأت.. أو حتى رفع ظهره عن فأسه ونظر إلينا.. ولم يأت سوى غبريال ثائراً.. مهرولاً يسـب ويلعـن فـي فضيلة.. ولما وصل إلينا.. كنت أنا وهي واقفين علـى رأس

الأرض.. وكان هو ممتطياً حماره.. ويفصل بيننا وبينه قناة الري الصغيرة.. في البداية اخذ يتحدث الى بهوادة ولين:

-كن في حالك يا جدنا مشعل.. أنت ليس لك صالح بما يحدث.

-وكيف أكون في حالي وأنت على هذا الظلم؟! اسمع.. أنني أحذرك.. ابتعد عن فضيلة يا غبريال وعن أرضـها.. فهي ابنتي وأرضها ارضي.. وأنا الذي سأقف أمامك.

ولم يتحمل غبريال مجرد وقوفي إلى جوار فضيلة.. اخذ يسبني بل وقفز من فوق حماره إلى الأرض.. ثم شمر جلبابه الحرير إلى أعلى بعد أن تراجع للخاف خطوتين. .ثم قفز من فوق القناة نحونا.. وعلى الفور وبدون تـردد.. قابلنـاه أنـا وفضيلة بأيدينا في وجهه.. فسقط في وسط القنـاة.. والـدم ينزف من انفه وفمه.. عند هذا الحد راحت عيون الفلاحـين ترقبنا وهي قلقة علينا. كانوا ينظرون إلينا تـارة فيجـدوننا واقفين على رأس الأرض.. وتارة إلى غبريال الراقـد فـي وحل القناة.. والذي يحاول النهوض.

في هذه الأثناء حاولت فضيلة النزول إلى غبريال.. غير أنني جذبتها إلى أعلى.. لكنها لم تسكت وراحت تحذره.

-إياك يا غبريال تحاول الاقتراب مـن أرضـي مـرة ثانية.. لن اسكت. .وسأعاملك بالمثل.. العين بالعين والسـن بالسن والبادي اظلم.

(١١)

الصراع لم يتوقف بين فضيلة وغبريـال.. بـل اشـتد واستمر لسنوات طويلة. .كبر خلالهـا بركـات وزهـرة.. ومحود ابن سلطان.

حكاية

عودة الحـــق

ولما عادت فضيلة من عند العمدة.. عادت ككل المرات السابقة.. حزينة ذليلة منكسة الرأس.. فالعمـدة مـا زال لا يحرك ساكنا تجاه غبريال بالذات.. حتى أنه لم يكلف خاطره بالذهاب إلى الحقل.. ليعاين معنا كيف نقل غبريـال الحـد الفاصل بين القطعتين إلى داخل قطعة فضيلة.. كـي يحتـل جزءاً كبيراً منها.

-سأعيد الحد بنفسي.

وقبل أن يضرب بركات الحد بفأسه.. كان قد التف حوله رجال غبريال. .فأنزل فأسه إلى جواره.. وعلى الفور جريت نحوه وجذبته من بين مخالبهم.. إلا أن غبريال اتجـه إلـى فضيلة وهزها من كتفها هزات عنيفة.. كادت تسقط خلالهـا على الأرض .

-فضيلة.. هدئي ولدك وإلا.. اسمعي.. عليك بالعمدة.

ثم أخذ يضحك ويضحك حتى وثب فوق حماره واتجـه إلى القرية.

ومن الأرض المنهوبة إلى دار العمدة فوراً.. كان جالساً على مقعده حزيناً.. حتى أنه لم يشعر بوجودنا داخل الدوار.. مال علينا سلامة الخفير وهمس:

-اتركا العمدة الآن.. إنه. ....

لكن فضيلة ما كانت تود الاستماع إلى أي حديث.. وعلى الفور اندفعت إلى العمدة وراحت تصرخ في وجهه.

-قانونك ظالم يا عمدة.. والسكوت على الظلم.. ظلم آخر.. أنت لست في مأمن.. وسيطولك ظلمك ذات يوم.. أفق يا عمدة قبل أن يبتلع غبريال كل شيء حتى أنت.

ويا لدهشتي وأنا أرى العمدة يبكي وسلامة الخفير يربت على كتفه.. ماذا حدث؟ وماذا سيحدث بعد ذلك يا عمدة.. وإلى أي الطرق تجرنا يا غبريال؟ وظللت بعدها أياما طوية أجول برأسي ذات اليمين وذات الشمال.. أحاول البحث عن مخرج أو حيلة نستعيد بها الأرض المسلوبة.. وذات يوم.. إذا كنت احلم.. احلم وأنا جالس.. كان المشعل قابعاً في الركن أمام عيني.. وشريط الذكريات يبدأ من المشعل ويمر أمام عيني وبرأسي.

العين بالعين والسن بالسن والبادي اظلم.. قالتها فضيلة لغبريال في بادئ الصراع.. ولم أشعر بنفسي إلا وأنا حاملاً

مشعلي ومتجهاً به إلى دارها.. كانت راقـدة تشـتكي مـن الصداع.. وكان بركات وأخته زهرة يجلسان أمـام الطعـام البارد في الأطباق ولا يأكلان.. اسـتحلفتها أن تبقـى علـى راحتها.. فأنا مثل أبيها.. لكنها رفضت واعتدلت في جلستها.

بركات.. زهرة.. اسمعوني يا أولاد.. في الليل وعنـدما يصبغ الظلام كل شيء بالأسود.. ساعة تنظـر فـي كفلـك ولاتراه.. سنكون جميعاً عدا زهرة في الأرض. .بالمناسـبة، محمود بن ولدي سلطان سيأتي معنا.. كـل واحـد يحضـر فاسه.. سنعيد الحد الليلة وسنسترد الأرض.

وغبريال.. هل سيسكت؟.. لا لا يا جدي.. أنا ما عـدت احتاج للأرض. .حياة بركات وزهرة تسـاوي عنـدي كـل شيء.

-أمي.. أول مرة أراك بهـذا الضـعف.. غبريـال لا يستطيع أن يمس شعرة مني أو من أختي.

-اسكت يا بركات يا ولدي.. غبريال لن يسكت.

-ماذا حدث؟.. أنا لا اصدق ما أسمع.. هـل نسـيتي؟ العين بالعين والسن بالسن والبادي اظلم يا غبريال.

-ا أكبر.. ينصر دينك يا جدي.. ينصر دينك يا جـدنا شمس.. اقصد يا جدي مشعل قالها بركات وراح يقبلني مـن

شدة سعادته بالفكرة.. ثم اتجه إلى أمي واخذ يقول لها كلمات ألهبت حماسها.. عند هذا الحد.. نهضت أنا ورفعت الطعـام البارد في الأطباق واتجهت به ناحية المطبخ.. إلا أنهم جميعاً اندفعوا نحوي.. وأخذت فضيلة الطعام من يدي.. ولم تمـر سوى دقائق معدودات حتى عادت إلينا بالطعام ساخناً شهياً. . وأخذنا نأكل منه بنهم دون توقف، حتى سمعنا الباب يُطرق.. كان سلامة الخفير.

-أنت هنا يا جدي.. يا لحظي السعيد.. على أيـة حـال مبروك.. حفيدك محمود صار رجلاً.. وبركات أيضـاً يـا فضيلة.. انهما مطلوبان غداً للجيش.. موعدنا قبـل طلـوع الشمس مباشرة يا بركات عند المستشفى في أول الطريـق.. سيكون معك إن شاء ا السيد حسب النبي وزغلول صـلاح وحمدي حماد وزكريا إسماعيل ومسعد العربي.

كانت مفاجأة قاسية علينا جميعاً.. فجرها سـلامة وراح ولم يترك لنا سوى الحيرة وسؤالاً لم نجد له إجابـة.. حتـى السماء التي كانت تطل علينا من الشباك. .صارت عبوسـاً.. وكأنها تعاني مَنْ الألم في الأحشاء.. وتود لو تنفجر.. أخذت فضيلة تتطلع بإمعان إلى بركات وكأنها لم تره مـن قبـل.. حتى انسال الدمع من عينيها.. ثم أخذت وجهه بـين كفيهـا

وقبلته من جبهته.. وفجأة استعادت وجهها الباسـم وراحـت تضحك. .تضحك.. تنظر إلينا وتضحك.. ونحن جميعاً فـي دهشة مما تفعل.. حتى اندفعنا خلفها إلى ضحك هسـتيري.. ولم نتوقف إلا عندما بادرتنا زهرة باقتراحها.

أنا أستطيع أن أعوض غياب بركات.

ساد الصمت قليلاً.. ثم اندفع بركات يفاجئنا هو الآخر

يدي مع أيديكم.. سنستعيد الأرض معاً وفـي الصـباح سأذهب إلى منطقة التجنيد واسلم نفسي.

وفجأة انفجرت السماء.. فظهرت سـعادة بالغـة علـى الوجوه.. فالمطر سيساعد كثيراً.. الشوارع المبتلة سوف تلزم الناس بالجلوس داخل الدور. حتى الحد عنـدما يبللـه مـاء المطر.. سيكون سهلاً طرياً تحت ضربات الفئوس.. وفـي غمرة هذا الفرح حملت مشعلي واتجهت إلى الـدار.. إذ أن عنصر الوقت ما عاد في صالحنا.. ولابد أن يعرف محمـود بكل شيء. .

وقبل طلوع الشمس كنا قد انتهينا من نقـل الحـد إلـى موضعه الطبيعي.. وكان بركات ومحمود في طريقهما إلـى المستشفى عند أول الطريق.. وبعد طلوع الشمس كان خبر عودة الحد إلى مكانه على السنة جميع الناس يرددونه بفرح..

ثم اتجهوا بعدها إلى العمدة واخذوا يطالبونه برحيل غبريـال عن القرية.

(١٢)

ست سنوات تدور فيها رحى الحرب ولم نحرز النصـر الذي يرد الاعتبار.. ست سنوات حرب تعودنا خلالها علـى قراءة الجرائد وسماع نشرات الأخبار والبيانات الصادرة عن القوات المسلحة عبر المذياع.. ست سنوات خوف وقلق على الأبناء والأحفاد الصامدين على الجبهة .

هااه.. لقد كان يوماً صعباً جداً.. يوم عاد السيد حسـب النبي إلى وحدته بالجيش.

حكاية

السيد حسب النبي

في الليل ذهبـت لأسـلم عليـه.. أطفـأت مشـعلي ذا البطاريات الثلاث ووضعته فوق المنضدة.. ثم رحت أعانقـه عناقاً طويلاً.. وكأنني أعانق حفيدي محمود.. كنت أبكـي.. وكان يبتسم.. أخذت وجهه بين راحتي ورحت أنظـر إليـه طويلاً.. كان يتغير. .فمرة أراه سيداً ومرة أراه محمـوداً.. امتلأت الدار عن آخرها بالناس.. كل واحد في انتظار دوره ليعانق السيد.. شهور طويلة غابها عنا.. الحـرب مشـتعلة والشهداء كثيرون. .وعودته إلينا كانت كالحلم.

جلست إلى جواره متعمـداً لأتجـاذب معـه أطـراف الحديث.. فأنا أود لو استخلص منه عبارة واحدة تريح النفس وتطمئنها.. وشعر هو بما يدور بداخلي.. فابتسم وربت على كتفي.. ثم أخذ يحدثني عن زملائه الأبطال وكيف يضـحون بأرواحهم كل يوم من أجل تحقيق عمليـات فدائيـة داخـل الأرض المحتلة.

-بارك ا فيكم يا ولدي.. لكن. .....

-لكن ماذا يا جدي.. أرجوك. أنا لا أستطيع الحديث أكثر من ذلك.. لكن ربما في المرة القادمة أستطيع.

-ماذا؟ أي مرة قادمة يا سيد.. من أوهمك بأنني سأتركك تعود؟ !

- أمي.. كيف لا أعود.. زملائي هناك في انتظاري.

في الصباح.. تسمرت الأم عند الباب لتمنع السيد من السفر بكل الطرق. .وجلس حسب النبي إلى جوار الحائط دون حراك.. وانحبست الأنفاس داخل صدور كل الذين تجمعوا حول الدار ليودعوا السيد.. ولكن الأم ظلت تصرخ.. تكاد تنحني أمام ولدها. .تود لو تقبل يده.. وكان هو مازال يبتسم.. يحاول أن يشعر الأم بضرورة العودة إلى الوحدة في الحال.. ووقفنا نحن عاجزين عن فعل أي شيء.. ثم ضم سيد أمه إلى صدره واخذ يقبل رأسها.

-آه يا أمي لو تعلمين قدر سعادتي وأنا أشارك زملائي في عمليات التحرير. .لو تعلمين يا أمي لتغير موقفك في الحال.. ولو علمت أن زملائي هناك على الجبهة ينتظرونني بفارغ الصبر.. حتى يتسنى لكل واحد مهم زيارة أهله.. لتغير موقفك وطلبتي مني أن أسرع في العودة إلى الوحدة.

وفجأة صرخ الحاج حسب النبي.

-اتركوه.. اتركوا ولدي يعود لزملائه.

ثم نهض الأب وقبل سيد بين عينيه.. ربت على ظهـره ودعا له بالعودة منتصراً مرفوع الرأس.

وسافر سيد.. نعم سافر وأخذ قلوبنا معه ولم يترك لنـا سوى الحيرة.. هل حقا نسـتطيع؟ هـل حقـا بالإمكـان أن ننتصر؟ أم أن خط بارليف والسلاح المتقدم ومساعدة بعـض الدول الكبيرة للأعداء.. سيحول دون النصر.

(١٣)

ولم يكن بارليف ولا السلاح المتقدم بعائقين.. تحطـم الأول وتفوقت الإرادة على الثانية.. وجاءت البشـارة عبـر جميع وسائل الإعلام.

ا أكبر عبرنا القناة.. ا أكبر هزمنا الأعـداء.. فعـاد سيد وبركات. .كما عادت العزة والكرامة في السـادس مـن أكتوبر.

حكاية
محمود والمولود

كل شيء عاد إلى وضعه الطبيعي.. إلا حفيدي محمود.. كان هو الوحيد من بين أبناء القرية الذي لم يعد ميتاً أو حيا.. انتظرته طويلاً.. كنت كل يوم أذهـب إلـى أول الطريـق وأجلس إلى جوار المستشفى انتظره.. كان العائد من حقله أو الذاهب إليه يلقي على السلام.. وهو يكاد أن ينطقها ويقـول: قم يا جدنا مشعل.. حفيدك محمود لن يعود. كنت أحسها في حديثهم وأفعالهم معي.. عندما يأتيني واحد ويأخذني معه إلى الحقل.. أو يأخذني معه إلى داره.. كانوا يظنون أننـي قـد فقدت عقلي.. أنا الوحيد الذي كنت أحس بأنه سيعود.. وأنـا الوحيد الذي لم أفقد الأمل.

قالوا شهيد.. لكن اسمه لم يرد بين الشـهداء.. وقـالوا أسيرا وقالوا تائه. .أو ربما فقد ذاكرته وضل طريقـه إلـى سامول.

وبعد رحلة شاقة ظللت أبحث خلالها عنه مع بعضٍ من أبناء القرية الذين شاركوني مأساة غيابه.. بحثنا عنه في كل مكان.. ذهبنا إلى العاصمة وسألنا عنه المستشفيات العسكرية

والمدنية أيضاً.. ثم عدت بعد ذلك لأنتظره هنا.. مع مديحة زوجته وولده أحمد.

في هذه الأيام.. كانت مديحة على وشك أن تضع حملها الجديد.. كان حملها هذا المرة صعباً.. مؤلماً لها.. ولنا أيضاً.. عشنا أياماً عصيبة كحمل مديحة تماماً.. أيام لم نستطع خلالها أن نستمتع فيها مع الناس بهذا النصر المبارك. .أيام لم نسمع خلالها صوت ضحكة صغيراً أو كبيراً.. أو ربما سمعنا لكننا لم نحسها. .وكأننا صرنا عديمي الإحساس بالفرح.. أيام لم نسمع خلالها سوى تأوهات الزوجة المسكينة. .

ويا فرج ا .. في لحظة كان الصمت يسود فيها المكان.. وكانت الأنظار تتجه إلى باب غرفة مديحة.. سمعنا الباب يطرق.. دقتين على الباب أعرفهما جيداً. .قفز قلبي من صدري ساعتها.. سبقني عند الباب.. كان محموداً عائداً إلينا ومازال يرتدي زي الجندية.. لحظات لم استطع وصفها جيداً.. لكنني أيضاً لم ولن أنساها. .لحظات أعادت إلى نفسي بهجتها.. ولا ادري لماذا كنت قد نسيت مشعلي طوال الأيام الماضية.. ولماذا تذكرته في هذا الوقت بالذات.. جذبته من يده وأجلسته إلى جواري.

مديحة في حالة وضع منذ الصباح يا محمود.. قـل يـا فرج ا .

فقال يا فرج ا .. وظل بباب غرفتها قبلتنا وقتاً طويلاً لم نتحدث خلاله في أي شيء.. ويا فرج ا .. جاءنـا صـوت صراخ الطفل مدوياً.. ثم خرجت القابلة بعدها بالبشارة وهي تهلل وتزغرد.. تنظر إلى محمود باندهاش.. فلم تتحمل ثـم تسقط على الأرض مغشية عليها.. فدفعت محمود إلى داخـل الغرفة.. واتجهت أنا إليها. .فأفقتها عندما وضعت أمام انفها بصلة.. ثم اتجهنا جميعاً إلى محمود نهنئه ونباركه. .فشكرنا بعد شكره .. ثم كبر وأذن في أذن الصغير سعد.

(١٤)

كنت اعلم تمام العلم.. أن مديحة زوجة حفيدي محمود لا تقرأ ولا تكتب. .لكنها ذكية تستطيع أن تحسب زرعة أرز كاملة حبة حبة.. كما أنها دائماً ترفض أن تتعلم.. وتقول لمن يحاول أن يحثها على التعليم:

كيف أتعلم في هذا السن؟ وبعد أن صرت أمـاً لشـابين اقتربا من سن الزواج؟ !

حكاية
تعليم مديحة

ذات صباح.. جاءتني مديحة زوجة حفيـدي محمـود.. وكنت جالساً في غرفتي. .وكعادتها عندما تود أن أزيد لهـا مصروف الدار.. راحت تسرف في تحيتي وتقبيل يدي. .ثـم اتجهت إلى المشعل وراحت تنفض عنه الغبار.. وعلى الفور أدركت ماذا تريد مديحة.

لن أزيد المصروف مهما فعلت يا مكارة.

فضحكت.. ثم أخرجت ورقة وقلماً.. وراحـت تحسـب مصاريف الأسبوع طماطـ ـ ـم بكـذا.. مصـروف الأولاد كـ ـذا.. علاج فلان كذا وكسوة علان كذا. ولحوم وخضار وشاي وسكر و ....

-كفى كفى.. ما هذا؟

ثم أدهشني طريقتها في الحساب.. إنها لأول مرة تحسب بالورقة والقلم. .كيف ذلك؟ هل جنت مديحة لدرجة أنسـتها أنها لا تقرأ ولا تكتب؟

فأخذت تضحك من جديد ثم أردفت قائلة:

- لم أجن يا جدي.. لكنني وقعت مثل البهيمة وكشـفت سري بنفسي.. على أية حال أنا سأوضح لك يا جـدي كـل شيء.

منذ سنة تقريباً.. وجدت ورقة بغرفة الأولاد وأنا أرتـب فراشهم.. ولم أعرف إن كانت ذلك الورقة تخص سـعداً أم تخص أحمد.. فوضعتها على مكتب سعد.. لأنه دائمـاً مـا يهمل أوراقه وكتبه.. لكن سعداً أخذ الورقة وقرأها وعـرف ما بها من أسرار. .وأنت تعلم شـقاوة سـعد وحبـه الـدائم لمضايقة أخيه أحمد.. فأخذ يحكي بمكر ودهاء عما تحتويـه الورقة.. في الذهاب والإياب.. ولما شعر أحمد بمـا يرمـي إليه سعد.. غضب كثيراً واتهمه بالتلصص على أسـراره.. وأنه هو الذي فتح الدرج واخذ الورقة منه.

ولولا قدومي في هذا التوقيت بالذات.. لتشابك الولدان.. وعلى الفور سألتهما عن سبب ما يجـري.. ولمـا عرفـت السبب.. أخبرت احمداً بأنني التي وضعت الورقة على مكتب سعد.. وأن السبب في ذلك يعود إلى جهلي بالقراءة والكتابة.

ومن وقتها وأنا عرفت فائدة العلم.. ثم قررت أن أتعلـم مهما كلفني الأمر. .وانتظرت حتى عاد محمـود وأخبرتـه

برغبتي في التعليم.. بعد أن أخبرته بما حدث. .يومها قال لي جملة ما زالت ترن في أذني.

لا ادري يا مديحة.. كيف نكون في بداية القرن الواحـد والعشرين.. وفي وسط كل هذا التقدم.. وبيننا من لا يقرأ ولا يكتب؟ !

ثم أخذني من يدي وذهب بي إلى المدرسـة وألحقنـي بفصول محو الأمية.. وكـان كـل ليلـة يصـطحبني إلـى المدرسة.. فأتعلم القراءة والكتابة والحساب.. وكان لا يكتفي بما آخذ في تلك الفصـول.. فأوصـى أحمـد وسـعد كـي يساعداني على المذاكرة وكتابة الواجب. .وبالفعـل تعلمـت منهما كيف أجمع وأطرح وأقسم وأضرب.. حتى محمود كان يجلس معي أوقاتاً طويلة يحكي لي فيها قصة الحرب وكيـف انتصرنا وقصة السلام الذي ننادي به دائماً من أجل الإنسانية كلها وشيئاً فشيئاً تعلمت وحصلت على شهادة محو الأمية منذ أسبوع واحد فقط.

-وأين كنت أنا من هذا كله؟

-اتفقنا جميعاً ألا نعلم أحدا إلا بعد أن أتعلـم وأحصـل على الشهادة. .خاصة أنت يا جدي.. خشـية أن تـرفض.. فوقت الدراسة كان ليلاً.. وربما أغضبك ذلك.

-يغضبني!!.. وكيف يغضبني؟.. هل عاهـدتني أكـره العلم؟

-سأقولها لك بصراحة.. لقد فعلت ما لـم يسـتطيع أن يفعله كثيرون.. العلم نور يا بنيتي.. وطالما أن الدولـة قـد وفرت لنا وسائل التعليم وفتحت لنا مدارسها لـيلاً ونهـاراً فلماذا لم يتعلم الجميع.. قومي يا مديحة وخذي ما يكفيكِ من المال. .لقد أثلجت صدري وجعلتني أشعر بالفخر والاعتزاز.

(تمـ ـ ـ ـت)